الازدواجية اللغوية في العالم العربي
التضافر والتنافر ما بين العامية والفصحى

✍أ.د. علي أسعد وطفة

كلية التربية - جامعة الكويت

الازدواجية اللغوية في العالم العربي
التضافر والتنافر ما بين العامية والفصحى

أ. د. علي أسعد وطفة

" من أغرب المُدْهِشات أن تنبتَ تلك اللغةُ القوميّةُ وتصل إلى درجة الكمال وسط الصحاري عند أمّةٍ من الرُحّل، تلك اللغة التي فاقت أخواتها بكثرةِ مفرداتها ودقّةِ معانيها وحسنِ نظامِ مبانيها، ولم يُعرف لها في كلّ أطوار حياتها طفولةٌ ولا شيخوخةٌ، ولا نكاد نعلم من شأنها إلاّ فتوحاتها وانتصاراتها التي لا تُبارى، ولا نعرف شبيهاً بهذه اللغة التي ظهرت للباحثين كاملةً من غير تدرّج وبقيت حافظةً لكيانها من كلّ شائبة ".

(المستشرق الفرنسي رينان)

مقدمة:

فرضت الازدواجية في اللغة العربية نفسها على نحو إشكالي في صيغ وتجليات مختلفة تباينت بتباين العصور والمراحل التاريخية للأمة. فالازدواجية اللغوية بين العامية والفصحى في العصر العباسي ليست مثلها في العهد العثماني، وليست كحالتها في مرحلة الركود الحضاري الشامل الذي نعيشه اليوم. ففي مراحل الازدهار كانت الازدواجية اللسانية تعبيرا عن حالة تقدم حضاري، حيث فرض حضور اللغة العربية المظفر وتوسعها في البلدان الإسلامية ظهور مستويات لغوية تتباعد أو تتقارب من اللغة العربية الفصيحة. أما اليوم فإن هذه الازدواجية تبدو أكثر عمقا وخطورة، وهي تعبر عن حالة انكسار حضاري شامل يفرض ثقله على الأمة العربية ليشكل أحد أكبر التحديات المانعة لحداثة الأمة ونهضتها.

وإذا كانت الازدواجية اللغوية تشكل حالة طبيعية في مختلف لغات العالم فإن هذه الازدواجية تشكل ظاهرة مرضية في مجتمعاتنا العربية، وتعبر عن حالة التردي والهزيمة الحضارية التي تعيشها هذه الأمة في حاضرها نظرا لاختلال العلاقة بين الفصحى والعامية. لقد فرض الانكسار الحضاري الذي تعيشه الأمة حالة من التردي اللساني، وأدى إلى اهتزاز العلاقة بين اللغة والحضارة، ففقدت العلاقة بين الفصحى والعامية ذلك التوازن الخلاق الذي كان يتميز بقوته وخصوبته، وتحولت تلك العلاقة إلى ظاهرة مرضية خانقة تفرض نفسها اجتماعيا وأخلاقيا وسياسيا في مختلف طبقات الحياة والوجود في المجتمعات العربية المعاصرة.

ونظرا لخطورة هذه القضية وعمق ارتباطها بالإشكالية الحضارية للأمة، تناول الباحثون والمفكرون العرب هذه الظاهرة بالدراسة والبحث والتحليل، وفي سياق هذا التناول اختلفوا في رؤيتهم لهذه القضية، فعكست مواقفهم منظومة الاتجاهات الأيديولوجية والفكرية السائدة في المنطقة العربية بين الاتجاهات الليبرالية والأصولية والقومية والتغريبيّة والانفصالية.

وتشكل تلك المواقف والاتجاهات الفكرية من إشكالية الفصحى والعامية بدورها قضية تستحق الاهتمام والتفكير، فهذه التيارات الأيديولوجية المتغالبة تعبر في ذاتها عن واقع التخلف الحضاري الذي تعانيه الأمة. فالبلدان التي حققت حداثتها تركت خلفها – منذ أمد بعيد – مثل هذه الصراعات والخلافات الأيديولوجية حول إشكاليات الازدواجية في اللغة، وبدأت تتجه إلى خلافات من نوع جديد تتعلق بالفاعلية الحضارية اللسانية لهذه الأمم والدول. وتتمثل هذه القضية في الدول المتقدمة في فرنسا وبريطانيا وغيرهما من البلدان في استراتيجيات لسانية تهدف إلى وضع اللغات القومية في مركز المنافسة والهيمنة والسيطرة، وتحقيق أكبر نفوذ لساني في العالم المعاصر. ونحن اليوم ما زلنا في طور الصراع والانقسام بين مؤيد للفصحى ومنتصر للعامية. ويدرك جمع المهتمين بقضايا اللغة العربية حاليا أن الصراع الفكري ما زال على أشده بين فقهاء اللغة وعلماء اللسانيات حول طبيعة العلاقة بين الفصحى والعامية. فقد دأب علماء الأمة على افتعال الصراع في كل صغيرة وكبيرة، وغفلوا عن المقاصد الموضوعية للبحث العقلاني النقدي الذي لا يترك للأيديولوجيا مكانا في هذا الصراع والخلاف الدائر.

ولا تزال المواقف الفكرية من ازدواجية اللغة العربية متضاربة متداخلة متراكبة، تبدأ من التناقض الكلي إلى التوافقات الجزئية، فهناك من يرفض العامية رفضا مطلقا ويعلي شعار الفصحى والفصيحة،

وهناك من ينتصر للعامية ويدعو إلى إلغاء الفصحى ووضعها في متاحف التاريخ، وهناك من يرى ضرورة تفصيح العامية بتعميم الفصحى، أو تعميم الفصحى بتفصيح العامية، وهناك من يريد الارتقاء بالعامية وتقعيدها على منوال الفصحى. وهذه المواقف المتناقضة والمتضاربة تدل في جوهرها على البعد الأخلاقي والإنساني والسياسي والحضاري لإشكالية الازدواجية اللغوية في ثقافتنا المعاصرة.

1- الازدواجية في اللغة العربية:

تعدّ ازدواجية اللغة العربية من أهم المشكلات التي تواجه فقهاء اللغة وعلماء البيان. ولا تختلف دلالة الازدواجية في العربية عن غيرها من اللغات من حيث المبدأ الذي يعتمد التقسيم العام بين لغة الكتابة ولغة المحادثة. فالازدواجية في اللغة العربية تعني " وجود العربية العامية (المنطوقة أساسا) إلى جانب العربية الفصيحة (المكتوبة أساساً) التي هي اللغة القومية والدينية والحضارية للأمة" (عبيد وسويسي، 1995، 123).

ويرى بعض المفكرين أن وجود الازدواجية اللغوية أمر طبيعي وضروري في كل اللغات. ووفقا لهذا التصور فإن لكل لغة رسمية فصحى لغة عامية تسير معها كظلها ولا ضرر أو ضرار بين الشيء وظله أو بين الروح وجسدها، فكل لغة فصحى مكتوبة ترافقها لغة محكية شعبية عامة غير مكتوبة تضافرها وتناظرها في دورة من التفاعل اللغوي الضروري للحياة الاجتماعية والفكرية.

ويؤكد العقاد في هذا السياق أهمية التجاور والتضافر بين العامية والفصحى فيقول: " **في كل أمة لغة كتابة ولغة حديث، وفي كل أمة لهجة تهذيب ولهجة ابتذال، وفي كل أمة كلام له قواعد وأصول، وكلام لا قواعد له ولا أصول. وسيظل الحال على هذا ما بقيت لغة، وما بقي ناس يتمايزون في المدارك والأذواق.** فلن يأتي اليوم الذي يُكتب فيه فردوس "ملتون" بلغة العامل الإنكليزي، وفلسفة "كانت" بلغة الزارع الألماني، ولن يأتي اليوم الذي تستوعب فيه قوالب السوق كل ما يخطر على قرائح العبقريين، ويختلج في ضمائر النفوس، ويتردد في نوابغ الأذهان: فالفصيحة باقية والعامية باقية مدى الزمان !" (الزغلول، 2000، 83).

فاللهجات العامية كانت موجودة في الجاهلية والإسلام من قبل، ثم جاء الإسلام فوحدها في البيان القرآني. وكانت هذه اللهجات حاضرة بقوة حتى في أزهى عصور اللغة العربية، ولم تشكل خطرا حقيقيا على الفصحى التي أخذت مكانتها العالية في مختلف ميادين الفكر والمعرفة المتقدمة. ويعبر الضبيب عن هذا الحضور للهجات العربية العامية إلى جانب الفصحى بقوله: " إن اللغة العامية كانت موجودة منذ العصور التاريخية القديمة، في صورة لهجات يستعملها العامة في بيئات مختلفة، وهم يعرفون أنهم باستعمالهم إياها لا يبلغون المستوى الرفيع الذي يبلغونه بالفصحى. ولذلك كانت العامية محصورة في بيئات التخاطب الضيقة التي كانت بيئات منعزلة. لم تكن العامية ترقى لتكون لغة الأدب أو الثقافة أو الدواوين الرسمية، ولم تكن الدروس تلقى بها في حلقات العلم، ولذلك لم يكن لها خطر على الفصحى في تلك الأيام (الجهني، 2009).

وفي هذا المقام يؤكد عدد كبير من الباحثين اللغويين أن الازدواجية اللغوية ظاهرة طبيعية في اللغة، فيرى محمد حسين أنها ليست حالة طارئة على اللغة العربية، وأنه لايضير اللغة العربية الفصحى كثيرًا قيام لهجات محلية أو لغة خطاب يومي دارجة، يتداولها العامة، وتقضى بها شؤون الحياة اليومية، وأن هذه الظاهرة ظاهرة بشرية طبيعية تشمل كل اللغات: قديمها وحديثها، فلها جميعًا لغة متأنقة دقيقة للفكر وللأدب، ولها لغة أخرى أقل دقة وجمالا، وأدنى درجة ووقارًا، للتعامل اليومي، وهي لغة متحولة متغيرة، لم تحظ بعناية العلماء والأدباء إلا في أيامنا هذه، التي كثر فيها التهريج في التمسح باسم الشعب، والتشدق بالفنون الشعبية(حسين، 1981، 214).

وتبين الحياة الثقافية في العالم العربي أن الازدواجية اللغوية تفرض نفسها بقوة في مختلف مناحي الحياة الاجتماعية، وضمن هذا الوجود " ما زالت الفصحى تستخدم في مختلف مظاهر الحياة الأدبية والعلمية والرسمية، كما هو الحال في الإدارة والقضاء والتعليم الخطاب السياسي والديني والثقافي؛ فيما تستعمل العامية، أو بالأحرى العاميات واللهجات، في مختلف تجليات الحياة الاجتماعية للحياة اليومية العادية (بلاو، 2000، 186).

وهكذا نجد أن الفصحى تفرض حضورها الفعلي والرسمي في مختلف أوجه الحياة الثقافية في مجال الآداب والفنون والتعليم والعلوم والإعلام، وفي المقابل نجد العامية تحتكر مجال الحياة اليومية وامتداداتها المباشرة وتنافس الفصحى منافسة تتباين قوتها من مجال إلى آخر. ولا يعني هذا بحال من الأحوال أن

العامية أحرزت قصب السبق وصارت اللغة السائدة. فالحقيقة أن الأيديولوجية السائدة لا تزال تحكم على العامية بوضع اللغة المضطهدة، وضع لغة من الدرجة الثانية، تتسلل من النافذة ولا تدخل من الباب (كلفت، 2012).

وتتميز الازدواجية اللغوية في اللغة العربية بالعمق والشمول، إذ تأخذ طابعا انفصاميا يهدد اللغة في كليتها، وفي هذا الأمر يقول أحد الكتاب واصفا عمق هذا الانفصام بين جناحي اللغة: " يصدمنا واقع وعمق الازدواجية اللغوية العربية على كل مستوى وفي كل مكان. وتتمثل هذه الظاهرة في هذا الوجود المتجاور أو المتزامن أو المتداخل أو المزدوج أو المنشطر بين اللغة المسماة بالعربية الفصحى واللغة أو اللغات المسماة بالعامية أو العاميات العربية" (كلفت، 2012).

والسؤال الذي يطرح نفسه بقوة هو: إذا كانت ظاهرة الازدواجية اللغويية ظاهرة طبيعية في جميع لغات العالم فلماذا تأخذ هذه الظاهرة طابعا مرضيا في اللغة العربية؟ وهذا هو السؤال عينه الذي يطرحه محمد راجي الزغلول إذ يقول: " إذا كان وضع الازدواجية طبيعيا في معظم لغات العالم، فلماذا يكون هذا الوضع إشكاليا أو عائقا للتقدم في البلدان العربية؟ " وعلى الأثر يقدم الزغلول تصوره حول هذه المسألة فيقول: "باعتقادي أن ذلك يعود لسببين رئيسيين: أولهما ازدياد الفجوة بين العامية والفصحى واللهجات نتيجة لعوامل تاريخية حتى أصبحتا وكأنهما لغتان مختلفتان في أعين الكثير من الباحثين. وثانيهما أنه رغم استقلال الدول العربية وتبني اللغة العربية رسميا وشعبيا، فإن الاعتماد على اللغات الأجنبية ما زال واسعا وممتدا. "(الزغلول، 2000، 78). ويتابع الزغلول في تحليل العلاقة بين العامية والفصحى فيقول: " إن من أهم مسببات اتساع الفجوة بين العامية والفصحى، بل من أهم أسباب ازدياد العامية، هو ارتفاع نسبة الأمية في مجتمع ما، والرقم في مجتمعاتنا معيب إذ يقارب إن لم يتجاوز 70٪ في بعض الدول، وبعكس ما اشار إليه بعض المستشرقين فإن ارتفاع نسبة الأمية هو الذي زاد الفجوة اتساعا بين العامية والفصحى. "(الزغلول، 2000، 79). ونعتقد أن الزغلول قد أصاب بعض الحق في تحليله هذا، ويبقى علينا أن نحلل عددا كبيرا من المتغيرات والأسباب المتداخلة في هذه القضية.

وقد ترتب فعليا على وجود الازدواجية اللغوية في العالم العربي ولادة ازدواجية في الموقف الفكري من هذه الظاهرة؛ حيث انقسم الباحثون إلى فريقين: فريق يرى في الازدواجية أزمة لغوية وخطرا داهما

يتحدى اللغة العربية ولاسيما الفصحى في وجودها وكيانها، وفريق آخر يرى أن هذه الازدواجية طبيعية ولها ما يماثلها في جميع لغات العالم ولا خوف منها على الإطلاق.

والحقيقة أننا لا نزال بعيدين عن التوصل إلى تصور يمكن الاطمئنان إليه فيما يتعلق بإشكاليات هذه الازدواجية. وما برح الجدل محتدما بين الباحثين العرب في طبيعة العلاقة بين مفهومي الفصحى والعامية، ولاسيما حول تأثير كل منهما في الأخرى سلبا وإيجابا. وما زال البحث في حدود هذه العلاقة يثير حماسة الباحثين للدرس والفحص والقياس والتعميم. والأسئلة التي تطرح نفسها في هذه الخصوص كثيرة متعددة منها: هل تشكل العامية في امتدادها وتوسعها خطرا حقيقيا على الفصيحة والفصحى؟ هل يمكن تفصيح العامية وإثراء الفصحى بعاميتها؟ أم هل يمكن أن تكون العلاقة بينهما علاقة تكامل وإثراء؟ هل يمكن للعامية في المستقبل أن تحلّ مكان الفصحى وتقصيها؟ أم هل يمكن تقعيد العامية على صورة الفصحى وتبنيها لغة وطنية؟ وهذه الأسئلة جميعها تطرح إشكاليات في تضاريس مختلفة للعلاقة بين الفصحى والعامية. والمهم في هذا كله أن الباحثين ما زالوا في طور دراسة هذه القضية المعقدة الشائكة يدفعه طموح كبير إلى إيجاد الحدود الفاصلة بين المفهومين وتحديد طبيعة العلاقة بينهما على نحو موضوعي.

2- أيديولوجيا الصراع بين الفصحى والعامية:

يحتدم الصراع الأيديولوجي بين أنصار الفصحى والعامية يوما بعد يوم، ويأخذ هذا الصراع مداه تحت مظلة الهجوم الذي غالبا ما يتجاوز حدود الطابع العقلاني للصراع الأيديولوجي. ويأخذ هذا الخلاف الأيديولوجي طابع الصراع الفكري المتوتر بين المقدس والوضعي. فأصحاب الفقه اللغوي ذوو التوجهات الإسلامية ينظرون إلى الفصحى بوصفها لغة دينية مقدسة اختارها الله لمخاطبة البشر، ويرون أنن هذه اللغة بلغت كمالها المقدس في القرآن الكريم وفي الحديث النبوي، وينبني على ذلك أن أي محاولة لتطوير اللغة والتغيير فيها يعدّ بمثابة التطاول على المقدس اللغوي. ومن هذه الزاوية يهاجم أصحاب هذا التيار العامية ويرون فيها تهديدا للمقدس اللغوي؛ فاللغة العربية لأصحاب هذا التيار ليست مجرد لغة عادية بل هي لغة كونية قدسية إدراكية من حيث المضامين ومن حيث التجليات الإنسانية.

ويتضافر رأي هؤلاء المتشددون أصحاب المقدس مع تيار من الفقهاء القوميين الذين يضفون على اللغة العربية طابعا قدسيا من منظور الهوية القومية، فاللغة الفصحى كما ينظرون إلها تشكل عمق الهوية والوجود، وأي تغيير أو تعديل يمكن أن يشكل خطرا على هذه الهوية. ومن هذا المنطلق يرون بضرورة المحافظة على الفصحى بوصفها اللغة التي تمكن ناطقيها من اكتناه العالم والتعبير عن ماهية وجودهم.

وعلى خلاف هذه الرؤية يرى فريق من الباحثين الوضعيين أن اللغة العربية لغة وضعية تخضع لقوانين التطور والتجديد، وهم يعبرون عن شكوكهم في مصداقية الطابع الكوني للغة العربية. وعلى الرغم من اعترافهم يعترفون بأهمية العربية وتقديرهم لعلاقاتها السامية بالدين الإسلامي، فإنه يصعب عليهم الاعتقاد بالأهمية المطلقة التي تنسب إليها.

ويوجد فريق اغترابي أو حداثي آخر يرى أن اللغة العربية بأصولها الدينية أصبحت لغة جامدة تعاند التطور وتناهض التغير وتقف في وجه الإبداع العلمي والفكري في مختلف أوجه الحياة والعمل. وهم من هذا المنطلق يرسلون الدعوة إلى تبني اللغة العامية ورفض اللغة الفصحى على نحو كلي لأنها غير صالحة للعصر بما يتطلبه من نهوض حضاري شامل.

ومما لا شك فيه أن الساحة تشهد تيارات معتدلة ترى إمكانية تطوير العامية والفصحى في اتجاه حضاري جديد يمكنهما من تطوير الحالة الحضارية للأمة العربية وتفجير الطاقة الإبداعية للشعوب العربية، فالفصحى يجب أن تخرج من دائرة جمودها وتحجرها، والعامية يجب أن تنطلق من أجل تقليص المسافة البنيوية بينها وبين الفصحى. ويرى أصحاب هذا التيار أن تطوير الفصحى والعامية باتجاه التفاعل والتخاصب يشكل منطلقا للنهوض الفكري والإبداعي في العالم العربي. ويبدو أن أصحاب التيار المعتدل أقل أهمية وشأنا في عملية الصراع الذي يحتدم بين المتشددين الداعين إلى إلغاء العامية وأولئك الداعين إلى رفض الفصحى بقضها وقضيضها.

ومن البداهة بمكان أن هذا الصراع المحتدم بين أنصار العامية وأنصار الفصحى يفعل فعله في إبقاء حالة الجمود في اللغة العربية بصورة عامة. فلا الفصحى تشهد تغيرا ولا العامية تلقى قبولا، وتبقى الوضعية أشبه بحالة انفصامية انشطارية تمنع أي تطور أو تقدم في مسألة اللغة العربية التي تشهد حالة من التردي والانحدار في مختلف مستويات الوجود والتفاعل الفكري والثقافي.

وشكل هذا الجمود الحضاري الأيديولوجي للغة العربية موضوعا جديدا للمفكرين والباحثين بحثا عن مخرج حضاري يضع اللغة العربية في مسارها الحضاري الصحيح.

وقد شكل هذا الفراق الأيديولوجي والفكري مقدمة موضوعية يستند إليها كل فريق بالتناوب في الهجوم على الفصحى تارة وعلى العامية تارة أخرى، فأصحاب النزعة الجمودية يهاجمون العامية وأصحاب النزعة الوضعية يهاجمون الفصحى. فريق يريد أن يحافظ على الفصحى في حلتها الدينية النقية، وفريق يريد تغيير الفصحى باتجاه التجديد والتغيير بما يتناسب مع معطيات الحضارة والعصر.

3- الهجوم على الفصحى :

شكلت الفصحى هدفا كبيرا للهجوم والنقد وما زالت تواجه ذلك، وتأرجحت فعاليات هذا الهجوم بين الدعوة إلى إصلاحها والدعوة إلى نبذها وإقصائها وإحلال العامية بديلا لها. ويلاحظ في هذا السياق أن الهجمة على اللغة العربية الفصحى وإضعافها جاءت بداية بإيعازات استشراقية غربية التوجه استعمارية الطابع. فالعربية عنوان قوة العرب وعنفوانهم في مجموعهم القومي، أو في توزعهم البشري مهما صغرت أو كبرت المجموعات البشرية التي ينتمون إليها. واللغة العربية – كما يعلم أهل الفكر والاختصاص – تشكل العمق الاستراتيجي للهوية العربية من وجهة نظر حضارية، وهي القوة الحيوية الكبرى للتعبير عن هوية العرب وانتمائهم الحضاري الإسلامي. وقد أدرك المستعمر الغربي ومن قبله التركي هذه الحقيقة، وعلموا علم اليقين أن كسر شوكة العرب والهيمنة على مقدرات وجودهم لا يكون إلا بتدمير لغتهم عنوان وحدتهم وعرين هويتهم ومعين نظرتهم الثقافية إلى الكون والوجود.

ويمكن لنا في هذا السياق أن نميز بين ثلاثة اتجاهات نحو الفصحى (ابن البراء، 2004):

أ– اتجاه يرى أصحابه أن الفصحى النموذجية قادرة على الوفاء باحتياجات أبنائها في مختلف قطاعات الحياة الاجتماعية والسياسية، وذلك لما تمتاز به من حيوية ومرونة. ويطالب بالتشبث باللغة العربية لأنها الضمان الوحيد للحفاظ على الهوية.

ب– يرى أصحاب الاتجاه الثاني أن دور الفصحى يجب أن يقتصر على أمور الدين والمراسيم الاجتماعية لأنها لا تستطيع بحكم طبيعتها الجامدة أن تفي باحتياجات العصر العلمية والتكنولوجية،

ولاسيما في مجال المصطلحات العلمية. ويبالغ أصحاب هذا الاتجاه في موقفهم ضد الفصحى إذ يرون أن استخدام الفصحى في التعليم قد يؤدي إلى قطيعة بين الطلاب وتحصيلهم العلمي الحديث ويحرمهم منإتقان اللغات الأجنبية. ويشير أصحاب هذا الاتجاه إلى عدم قدرة اللغة العربية على مواكبة التطور السريع للعلوم وللمعارف، ويرون أن العربية تجعل الوفاء بما يحتاجه الطالب والمدرس من مصطلحات أمراً غير ميسور، وهم يغمزون من طرف عدم القدرة على تعريب المصطلحات العلمية نظرا للاختلاف بين الباحثين العرب وبين الأقطار العربية في عملية تعريب المصطلحات (ابن البراء، 2004).

ج- يرى أصحاب الاتجاه الثالث أن العربية تحتاج إلى التطور والتنظيم والتخطيط، وهي تستطيع عندما تطور نفسها أن تلبي مختلف التطلعات العلمية وأن تفي بمختلف احتياجات العصر الحضارية والعلمية. وهذا الموقف يتضمن كثيرا من الحكمة والحصافة والموضوعية (ابن البراء، 2004).

وقد تركّزت الهجمات على العربية الفصحى المستعملة في الجرائد والترجمات في ثلاثة محاور: الدعوة إلى العامية، ثم الدعوة إلى استبدال الحروف العربية من أجل التيسير، والدعوة إلى تيسير قواعد النحو والبلاغة والبيان.

ويجب علينا في هذا المسار أن نميز بين الدعوة إلى إصلاح اللغة العربية وتطويرها وتطوير أدائها وتفجير إمكاناتها الحضارية وبين الاتجاهات التي تتجاوز هذه الدعوة إلى إبطال اللغة العربية الفصحى وإقصائها وإحلال اللهجات المحلية أو الأجنبية مكانها. فطه حسين عميد الأدب العربي كان قد دعا إلى تطوير الفصحى وتطويع قواعدها لمعطيات العصر الجديد بمتطلباته الحضارية الجديدة. وفي هذا يقول: " من الحق أن اللغة العربية عسيرة، لأن نحوها ما زال قديما عسيرا، ولأن كتابتها ما زالت قديمة عسيرة، ولأن مناهجها ما زالت بعيدة عن ملاءمة حاجة الصبي وطاقته، ولأن معلمها لم يتهيأ بعد ليكون رفيقا بها وبالتلميذ، قادرا عليها وعلى التلميذ "(حسين، 1973، 247).

فطه حسين في هذا الموقف يبدو عقلانيا وموضوعيا، وهو يريد خيرا باللغة العربية كي تكون أكثر قدرة على مواكبة العصر وتفجير الطاقات العربية في مجال العطاء العلمي والفكري. وما زالت الساحة العربية تعج بعدد كبير من المفكرين والأدباء والباحثين وفقهاء اللغة الذين يريدون في حقيقة الأمر تطوير اللغة العربية دون المساس بجوهرها وقوتها وهويتها ونحوها.

لقد أدركت الدول المستعمرة أبعاد هذه القوة الحضارية الهائلة المكتنزة في العربية الفصحى، وأدركت أيضا أن السيطرة والهيمنة الثقافية والسياسية لا يمكن أن تكتمل ما بقيت اللغة العربية رابطة هوية وثقافة ودين وشعور بالقوة والإرادة، فالعربية الفصحى تشكل في جوهر الأمر الطاقة الحيوية للكينونة الحضارية العربية، فعمل على تفجير اللغة العربية الفصحى وتفكيك أواصر وجودها، وما انفك منذ بداية القرن الماضي يعمل على تفكيك الفصحى وتهديم بنيتها وعزلها عن متكلميها. ومن أجل هذه الغاية فرض المستعمر لغته فقام بفرنسة المغرب العربي وفرض اللغة الإنكليزية في المشرق العربي والإيطالية في ليبيا مقصيا اللغة العربية، ومبعدا إياها عن مختلف الميادين الثقافية والفكرية. ومن أجل إقصاء اللغة الفصحى وكسر شوكتها وتفكيك مقومات وجودها عمل المستعمر على إحياء اللهجات المحلية منطلقا من الزعم القائلإن الفصحى العربية لغة كلاسيكية قديمة ضعيفة قاصرة عن الأخذ بأسباب الحضارة، وإنها فقدت مبررات وجودها التاريخي كقوة حضارية وثقافية.

يقول الزغلول بهذا الصدد: " بعد ثورة 1919 في مصر برزت مجموعة من الكتاب يدعون لما نسميه الفرعونية المصرية، أو الإقليمية الضيقة. ولم يكن الاستعمار البريطاني مشجعا على الفكرة فحسب بل متمنيا لها. وقد علق محمد حسين على هذه الحركة بأنها حركة استعمارية انفصالية كان وراءها الإنكليز. وقد دعت هذه الحركة إلى "مصرنة أو تمصير " اللغة والفن والأدب. واستعمال العامية المصرية بدلا من الفصحى. وفي هذه الفترة دعا أحمد لطفي السيد إلى ما أسماه التسامح اللغوي وما قصده بذلك هو إصلاح الفصحى باستعمال الألفاظ العامية "(الزغلول، 2000، 72).

واتخذ الهجوم الاستعماري على العربية الفصحى طابعا ثقافيا استشراقيا، حيث هاجم المستشرقون الغربيون العربية الفصحى واتهموها بالضعف والانحلال والتخلف ورموها بعدم قدرتها على مسايرة ومجاراة الحضارة الحديثة. ومن أبرز المستشرقين الذين هاجموا اللغة العربية يمكن الإشارة إلى المستشرق الاسكتلندي المعروف إلياس جون جب (1857–1901) (Elias John Wilkinson Gibb) الذي كان له قصب السبق في إدانته للعربية الفصحى. وفي دائرة الهجوم على العربية يرى "جب" أن مشكلة العربية تكمن في عدم قدرتها على التجاوب مع متطلبات الحضارة المدنية المعاصرة زاعما أن العربية غير قادرة على الوفاء بحاجات الحياة المدنية في العلم، والفن، والصناعة، والاقتصاد"(بركات، 2003، 114). وهكذا "اتهم المستشرقون الفصحى بضعف كفايتها العلمية؛ نظرًا لعدم قدرتها على " مسايرة

التطور العلمي الحديث، بحجة عدم وجود المراجع، والكتب العلمية باللغة العربية، حتى يستطيع كل من المعلم، والتلميذ أن يتدارسوها "، كما ادعوا أنها " لغة كلاسيكية لا تصلح للحياة العصرية، إنها لغة معقدة صعبة، تضيق عن استيعاب العلوم والمبتكرات "، بسبب قلة ألفاظها، ومصطلحاتها. فهذه المزاعم وتلك الاتهامات كانت هي السبب الرئيس في الدعوة إلى العامية، بدلا من الفصحى، واستبدال حروفها بحروف أجنبية أخرى" (بركات، 2003، 114).

وهناك نزعات للتركيز على اللغات العامية وفصلها عن الفصحى "وتتماشى هذه الرؤية مع تلفيق لغة مستقلة خاصة بهذا القطر أو ذاك، مثل التركيز من جانب واحد على "مصرية" ما يسمى بالعامية المصرية، مع تجاهل أو تحدٍّ أو التقليل من شأن كونها لغة عربية، أو حتى مع الاعتراف بعربية "العامية المصرية" مع المبالغة في حجم المكوِّن المصري أو الفرعوني أو القبطي في هذه اللغة" (الرخاوي، 2003). وقد شهدت الفصحى أخطر هجوم على يد المستشرق وليم ولكوكس (William Willcocks) (1852-1932) مهندس الري الإنجليزي في مصر. وظهرت ملامح هذا الهجوم الكبير والصريح عندما ألقى ولكوكس محاضرة في نادي الأزبكية بمصر عام ١٨٩٣يدعو فيها إلى رفض العربية واستبدالها باللهجة العامية المصرية. وقد نشر محاضرته المشؤومة هذه في مجلة الأزهر بعنوان " لمَ لمْ توجد قوة الاختراع لدى المصريين الآن؟ "، وزعم ولكوكس في هذه المقالة أن التأليف باللغة العربية الفصحى يعيق المصريين عن الاختراع والإبداع، ويرى أن العامية المصرية هي الأفضل والأقدر على تنمية ملكة الإبداع والابتكار والنهضة العلمية، وانطلاقا من هذه الرؤية دعا المصريين إلى نبذ الفصحى ورفضها واستخدام العامية بديلا لها (بركات، 2003، 113). وشدد ولكوكس دعوته عبر مجلته التي سماه (الأزهر) إلى عدم استخدام الفصحى كلغة أساسية للتعليم في المدارس لأنها تتناقض مع الفكر الحر لدى الطالب، ولا تتجاوب مع متطلبات العقل والتفكير النقدي؛ وفي كثير من إشاراته يعلن أن الطالب المصري يبذل جهدا كبيرا ضائعا لترجمة ما يقرؤه من الفصحى إلى العامية، وعلى التوالي ترجمة ما يفهمه من العامية إلى الفصحى، عند الكتابة مرة أخرى، وعلى هذا الأساس اقترح ولكوكس اعتماد العامية المصرية لغة التعليم والتربية والحياة العلمية والفكرية على امتداد الديار المصرية، وكان يروج أنه يمكن لمثل هذه التجربة أن تحقق نجاحا خلال عشر سنوات يمكن خلالها نشر العامية والتحرر من المعاناة الحضارية التي تفرضها الفصحى.

ولم تقف دعوة ولكوكس عند حدود التوجهات الفكرية المشروعة في أي قضية من القضايا الفكرية والسياسية، بل تجاوز حدود الأيديولوجيا إلى الممارسة الفعلية تطبيقا لدعوته نبذ الفصحى وإقصائها، وتمثلت هذه الممارسة في الوقت الذي أعلن فيه عن مسابقة جائزتها أربعة جنيهات إنكليزية لمن يترجم سورة من القرآن الكريم بالعامية المصرية، ثم جعل نفسه قدوة بأن ترجم جزءاً من الإنجيل إلى العامية. وسار على طريقة القاضي (سلدن ولمور) وآخر ألماني يعمل في دار الكتب، وحذت حذوهم مجلة المقتطف عندما كانت تصدر في بيروت وأسهمت معهم بشيء من الاعتدال مجلة الهلال»(الجهني، 2009).

وكانت اللغة العربية إحدى القضايا التي عالجها المجتمعون في لقاء الدول الثماني عام 2004 حيث خصص لها المشاركون بندا يتعرض لمسألة تحديث اللغة العربية وقرر المجتمعون في هذا المجال ما يلي (بن تنباك، 2005):

1. إن عدم تطوير اللغة العربية وعدم تحررها من أشكالها القديمة التي ظلت عليها منذ قرون، أدَّى فعليّاً إلى صعوبة كبرى في استيعاب أهل الحضارات والأديان الأخرى لهذه اللغة أو تعلمها أو الاقتراب فكرياً ممن يتحدث بها.

2. إن الإرهابيين الذين يتحدثون اللغة العربية وتتم ترجمة كلماتهم إلى الإنكليزية أو الفرنسية لا نعرف شعورهم الحقيقي أو الدوافع الكامنة وراء ارتكابهم لهذه الأحداث، لأن الترجمة العربية إلى اللغات الأخرى يبدو أنها تواجه مشكلات حقيقية نحن غير قادرين على تصنيفها وتبيان أسبابها الحقيقية.

3. إن العلوم الدولية لا تستطيع أن تعتمد هذه اللغة بسبب تعقد رموزها وصعوبة أشكالها في الوقت الذي يستطيع أهل اللغة العربية ومتحدثوها إتقان اللغات المشتقة من اللغة اللاتينية مثل الإنكليزية والفرنسية.

4. العرب يتحدثون اللغات الأوروبية مثل أهلها تماماً مما يؤكد سهولة أشكال وحروف اللاتينية وقدرتها على التأقلم والتطوير تحت أي ظرف.

5. ندرك أن هناك لغة مشتركة يمكن أن تجمع كل سكان الكرة الأرضية فيما عدا الذين يتحدثون باللغة العربية وهو مما يجعل من الصعب بنا التواصل معهم أو معرفة دوافعهم النفسية.

6. إن صعوبة التقاء اللغة العربية مع اللغة الإنكليزية كانت الدافع الرئيسي وراء موجة الكره العربي لأمريكا وإسرائيل والشعور بالبغض والانتقام من الذين يتحدثون الإنكليزية والفرنسية (بن تنباك، 2005).

وتشكل هذه التصورات التي اتفق عليها المؤتمرون برهانا قطعيا على أن اللغة العربية تواجه تحديات عدوانية من قبل الدول الغربية وأن هذه اللغة مستهدفة في جوهرها وفي كيانها.

ولم يقتصر الأمر على اتهام المستشرقين للغة العربية بقصورها وعدم كفايتها العلمية، إذ شهدت الساحة الفكرية ولادة تيار كبير من المستغربين العرب الداعين إلى نبذ الفصحى ورفضها لغةً للعلم والمعرفة والتربية، وذلك لأنها (حسب زعمهم) لغة قاصرة عاجزة عن أداء دورها الحضاري والتجاوب مع الحداثة ومعطيات العصر. ويشار في هذا المضمار إلى محمد حسين هيكل (1888-1956) يم بوصفه أكثر المفكرين العرب عداوة للعربية الفصحى وأكثرهم حماسة واندفاعا في الدعوة إلى العامية المصرية تحديدا بديلا للفصحى(انظر ويكيبديا الموسوعة الحرة الإلكترونية). لقد رأى هيكل عدم ملاءمة الفصحى للحضارة الحديثة، وكان يدعو إلى تمصير اللغة العربية وأنه يجب على الكتاب أن يستمدوا موادهم الكتابية من الحاضر بألفاظه وتراكيبه ومعانيه وليس من الماضي. ويقول هيكل بهذا الصدد: " والحق أن اللغة العربية على ما خلفتها حضارة العرب كثيرًا ما تستعصي على صور هذه الحضارات الحديثة، وليس عليها من ذلك ذنب، وليس في طبيعتها دون الوصول إليه عجز، ذلك بأن اللغة العربية أداة، وإن لم يدم صقلها علاها الصدأ، ثم كان فيها تثاقل عن السير المطمئن إلى حيث يحتاج إليها الذهن الفياض بمعان وصور جديرة، ولقد يبلغ من صدئها أن يقبرها "(بركات، 2003، 126-127). وهكذا رأى هيكل أن الفصحى لا تتماشى مع الحضارة الحديثة؛ لأنها صارت لغة عاجزة تعاني من الشيخوخة، وصار يعلوها الصدأ، وإن لم تنهض بنفسها فستموت وتقبر وهو بهذا يردد نفس فكرةولكوكس"في ضرورة تطور اللغة وتجديدها؛ لأنها بحالتها تلك تعد متخلفة وعائقًا للتقدم(بركات، 2003، 126-127).

ولم ينفرد هيكل في دعوته هذه، إذ شهدت الساحة الفكرية تنامي تيار فكري كبير يدعو إلى رفض الفصحى بوصفها عقبة حقيقية في وجه التطور والحياة والحضارة. وإلى هذا التيار ينتسب المفكر المصري

[1] – لا بد من التمييز بين الصحافي محمد حسنين هيكل ومحمد حسين هيكل المشار إليه هنا.

يوسف السباعي (1917–1978) الذي دعا إلى تبني العامية ورفض الفصحى إذ يقول مهاجما الفصحى: "يجب أن نتحلل من هذه القيود السخيفة، لماذا كل هذا التعب؟ ألأن العرب منذ ألف سنة رفعوا هذه ونصبوا تلك.. .. ليكن.. .. لنحافظ على تراثهم كما هو.. .. على أن نحلل لغتنا من أثقاله وقيوده، ونقولها بأبسط الطرق، لنسكن آخر كل كلمة، ولنبطل التنوين، ولنقل الجمع بالياء فقط، ولنحرم أدوات الجزم والنصب من سلطاتها، لنتحلل من كل هذا، ولنصرف الممنوع من الصرف، ولنتحدث بلغتنا دون خوف من لحن أو خطأ، يجب أن يزول احتكار اللغة بقيودها وقواعدها ونحوها وصرفها، وعلى أية حال إن لم نحطمها الآن فستحطمها الأجيال القادمة فلنكن شجعانا ونريحهم نحن منها " (إبراهيم، 2007).

وقد مهد الهجوم الشديد على الفصحى، واتهامها بالضعف والقصور، للدعوة إلى تبني العامية واللهجات المحلية. وفي هذه الأجواء المعادية للعربية الفصحى تنامت الدعوة إلى التخلي عن العربية الفصحى وتبني اللهجات العامية العربية في كل قطر من أقطار العالم العربي. ويؤخذ على المصلح الكبير رفاعة الطهطاوي الذي ترك بصماته الإيجابية على التعريب في مصر أنه خصص فصلا من كتابه «أنوار توفيق الجليل وتوثيق أخبار بنى إسماعيل» للحديث عن اللغة العربية ووجوب إحيائها، لكنه ضمنه دعوة إلى استعمال اللهجة العامية ووضع قواعد لها والاعتناء بها، ورأى أنه لا مانع من أن يكون للعامية قواعد قريبة المأخذ تضبطها، وأصول على حسب الإمكان تربطها، ليتعارفها أهل الإقليم، حيث نفعها بالنسبة إليهم عميم، وكان الطهطاوي أول من أدخل العامية إلى لغة الصحافة وذلك في صحيفة الوقائع المصرية التي كان يشرف عليها (حسن، 2010).

ثم بدأت الدعوة إلى تبني العامية تأخذ مداها ويشتد عودها، وبدأ بعض المفكرين يؤلفون بالعامية ويعملون على تقعيدها، وضمن هذا التوجه ألف المستشرق الألماني «ولهلم سبيتا» – الذي كان مديرا لدار الكتب المصرية في أواخر القرن التاسع عشر– كتابا سماه «قواعد اللغة العامية في مصر» عام 1880. وضمن هذا الكتاب هجوما ربط فيه بين العربية الفصحى والتخلف، فقال: إنه «بالتزام الكتابة بالعربية الكلاسيكية القديمة لا يمكن أن ينمو أدب حقيقي ويتطور، لأن الطبقة المتعلمة القليلة العدد هي وحدها التي يمكن أن يكون الكتاب في متناول يدها». ثم يقول: «لماذا لا يمكن تغيير هذه الحالة المؤسفة إلى ما هو

أحسن؟ ببساطة لأن هناك خوفا من تهمة التعدي على حرمة الدين إذا تركنا لغة القرآن تركا كليا (حسن، 2010).

وفى نفس الاتجاه صبت دعوة المستشرق الإنكليزي «سلون ولمور» – الذي تولى القضاء بالمحاكم الأهلية بالقاهرة إبان الاحتلال الإنكليزى لمصر– فأصدر كتابا بعنوان «العربية المحلية في مصر» في عام 1901 طالب فيه باتخاذ العامية المصرية لغة أدبية بدلا من الفصحى ووضع قواعد لها. ثم أيد دعوة سابقيه إلى كتابتها بالأحرف اللاتينية، مهددا ـ في حال عدم الاستجابة لدعوته ـ بانقراض لغتي الحديث (العامية والأدب (الفصحى) نتيجة لزيادة الاتصال بالأمم. (حسن، 2010). وكان "ولمور" يدعو إلى استخدام العامية في وسائل لأن وسائل الإعلام أفضل وسيلة لإعطاء العامية مشروعية وجودها وحضورها. وكان يرى أنه يجب على الصحف أن تتخذ الخطوة الأولى لتعميم العامية وترويج استخدامها، وعلى هذا النحو فإن النشر بالعامية سيؤدي إلى انتشار القراءة والكتابة في مختلف أنحاء البلاد وفي فترة قصيرة نسبيا. وتزعم عبد العزيز فهمي عضو مجمع اللغة العربية الدعوة إلى العامية بديلا للفصحى، فقدم إلى مجمع اللغة العربيّة ففي القاهرة في عام 1943 مشروعا تغريبيا يدعو فيه إلى «استبدال الحروف العربية بالحروف اللاتينية». ولما رفض تبنى «سلامة موسى» هذه الدعوة واصفا عملية تبني الحروف اللاتينية بأنها "وثبة المستقبل" وأن الحروف اللاتينية ستكون مصدر إلهام حضاري وحداثي (حسن، 2010).

وفيلبنان تبنى الدعوة نفسها الشاعر سعيد عقل، الذي هاجم اللغة العربية بأصولها الدينية، إذ يقول: «إن من أراد لغة القرآن فليذهب إلى أرض القرآن (حسن، 2010). وقد أنشأ عقل أول مطبعة لكتابة المحكية اللبنانية بالحروف اللاتينية مع إضافة بعض الحروف إليها. وفي هذه المطبعة بالذات قام عقل بطبع مجموعة من كتبه ودواوينه الشعرية، كما أصدر صحيفة يومية باللغة عينها (خير الله، 2005، 54).

ووجدت دعوة عقل صداها لدى «أنيس فريحة»، الذي كان من أبرز دعاة العامية والحروف اللاتينية في لبنان. وكان فريحة في دعوته هذه يعترض على اعتماد اللغة العربية كلغة للجيل الحاضر، وكان يرى أن الذين استنبطوا قواعد العربية وضبطوا أحكامها اعتمدوا الشعر الجاهلي أولا ثم القرآن الكريم مادة لغوية. وهو يعترض على ذلك بقوله: "متى كانت لغة الشعر ولغة الأدب والدين مرآة تعكس لغة الناس فى معاشهم ومكاسبهم»؟ !(حسن، 2010).

وظهرت عدد من الكتب التي عملت على النيل من العربية الفصحى وأهمها:

- كتاب " لغة بيروت العامية" للمستشرق إمانويل مانسين.
- كتاب " لغة مراكش العامية وقواعدها" لابن سحيل.
- كتاب " قواعد العامية الشرقية والمغربية" للمستشرق كوسان دويرسغال.
- كتاب " عامية دمشق" للمستشرق براغستراس.
- كتاب " قواعد العربية العامية في مصر " للمستشرق الألماني ولهلم بيتا.
- كتاب " قواعد اللهجة اللبنانية السورية " لرفائيل نخلة.
- كتاب " قواعد العربية العامية في مصر " للمستشرق الألماني ولهلم بيتا.

كما أُلفت العديد من المصنفات في منطقة الخليج العربي لتخدم الغرض عينه وبخاصة بعد اكتشاف النفط. (خير الله، 2005، 53).

ولم يقتصر الهجوم على اللغة العربية على ما رميت به من ضعف في بنيتها وأدائها وفقدان قدرتها على مواكبة العصر، بل تعرضت لنوع آخر من الهجوم أكثر خطورة وتدميرا يرميها في صميم جوهرها وتكوينها، حيث اتهمت بأنها لغة دينية مغسولة الدماغ غير قادرة على استلهام الحضارة الإنسانية. ويظهر هذا الهجوم في مقالة لعبد الرحمن عبد الهادي بعنوان (الذهنية العربية: منظور لغوي) شن فيها هجوما على الفصحى في صميم وجودها وهويتها وماهيتها الحضارية فيقول:

" فإن عدنا إلى اللغة العربية التي هي أداة مشكلة ومتشكلة مثلها مثل الإنسان العربي، لوجدنا أنها أداة "مغسولة الدماغ" عاشت في مخزون التبديد عدة قرون، فاللغة العربية انتشرت وسادت في ظل سيطرة دينية، وامتلكت سطوة إيمانية جاهزة المفردات، مكتملة الصياغات ثابتة الدلالات عند حاجز علوي متسام لا يمكن الخوض في أو التساؤل عنده، أي إننا نستطيع القول بأنها تشكلت في إطار المطلق اليقيني المتعالي، وبالتالي أخذت كما هي، ويتم تعليمها كما هي بالمناهج نفسها منذ أكثر من عشرة قرون، وتستطيع أن تفتح كتب اللغة العربية من الابتدائي إلى الجامعة، لتجد أنها لم تتغير منذ مئات السنين، المناهج نفسها والتعبيرات نفسها، والنصوص نفسها، الروح نفسها وكأن العالم واقف لم يبرح مظلة قريش قبل الهجرة وبعد الهجرة، وهي حالة مذهلة قلما نجد لها نظيرا في أي لغة أخرى في العالم، وقد أوحى لنا هذا بملاحظة كثرة الشعراء في وطننا العربي وغلبتهم على كل مجالات الإبداع المختلفة، علمية وأدبية،

وكأنهم يكررون حالة العري القديم ساكن الصحراء المتغني بمجده التليد، أو كأن الشاعر الجاهلي القديم نفسه انبعث من جديد فملأ صحفنا ضجيجا وأوراقنا طباعةً ونشرا"(عبد الهادي، 1993، 17).

ويتابع عبد الرحمن عبد الهادي هجومه على العربية متهما إياها بأنها لغة مجردة غير واقعية غير قادرة على تحقيق فعل التواصل الإبداعي الفلسفي فيقول: " علينا أن نكشف الغطاء عن "البنية المفهومية" العربية، فندعي أنها بنية "نظرية تجريدية" أكثر منها بنية "عملية"، وطابع الإبداع فيها طابع كلامي وليس طابعا علميا ملموسا يصل إلى حد الكلام المجرد الذي يشبه لغة الجنون بالمعنى النفسي، أي توليد ألفاظ من ألفاظ وصيغ، من ألفاظ وصيغ أخرى تمتد وتمتد لتفرق ملة عن أخرى، وفرقة عن فرقة، ويكفي أن تطلع على نصوص مذهبية لفرق مثل الباطنية أو المعتزلة أو الأشاعرة وحتى الظاهرية والغزالية، لتدرك أن العمل الفكري الذي تمّ قام كليا على عمليات ذهنية وعلى حجج منطقية "(عبد الهادي، 1993، 22). فالإعجاز العربي " العربي إعجاز لفظي، فالعربي لا يرى في طلوع الإنسان إلى القمر معجزة، بل أحيانا ما نجد بعض الناس ينكرها، والعربي لا يرى الهاتف والتلفاز والسيارة والقطار والطائرة والصناعة، أو أي أداة جلبها العلم الحديث(عبد الهادي، 1993، 25). وفي هذا السياق يقول أبو علي ياسين مؤكدا على الطابع النظري اللفظي للغة العربية وطابعها المطلق: "الجملة العربية هي إما جملة اسمية أو جملة فعلية، أما الجملة الأوروبية فهي دائما جملة فعلية، الجملة الاسمية توحي بإطلاقية لا نلحظها في الجملة الفعلية، لأن الفعل مرتهن بالزمان؛ هي بصورة ما سلوكية لا تعبر عن حدث بل عن حالة وعن ديمومة ظاهرية–مهما قصرت واقعيا– ويقول أيضا "تبدأ الجملة العربية الفعلية بالفعل في حين تبدؤها اللغات الأوروبية عادة بالفاعل، هذا يعني أن العرب يهتمون أولا بالفعل ثم ينظرون إلى الفاعل (عبد الهادي، 1993، 21).

ومن جديد يعود عبد الهادي للتأكيد على الطابع النصي المقدس للغة العربية، فيرى أن الفعل الحضاري تمّ تجميده بالمقدس النصي الذي سطا على الفكر والتفكير السائد حتى الآن. وتأسيسا على هذه الرؤية ينادي عبد الرحمن بالابتعاد عن الأصول اللغوية لخلق دلالات جديدة للألفاظ يوسع ويعمق مساحة الحرية العقلية للإنسان، لأن هذه المساحة نفسها تولد الألفاظ الجديدة والدلالات الجديدة، وهي بذاتها– كتعبير عن هذه الحرية—توسع دائرتها ومداها كيفيا وكميا في الوقت نفسه (عبد الهادي، 1993، 19). ومن الواضح أن عبد الرحمن ينطلق من وجهة نظر حداثية يرى فيها أن تشبعات اللغة بالماضي والتيارات

السلفية الجامدة قد أضعفت اللغة وجعلتها خارج مسارها الحضاري. ولا نحسب في نهاية الأمر إلا أن نرى في آراء عبد الرحمن مقدمة ربما للتفكير فيما علق باللغة العربية من شوائب الماضي وإيجاد المخرج الحيوي من أجل تطوير الأداء الحضاري للغة العربية.

وإلى هذا المذهب يذهب خلدون النقيب في الكويت إذ يعلن قلقا منهجيا حول أوضاع اللغة العربية ويوجه أصابع الاتهام إلى طريق تدريس اللغة وبنيتها القواعدية الجامدة فيقول متسائلا: "بأي لغة يتم توصيل المعلومات للطلبة؟ وهل تواكب اللغة العربية بوصفها لغة التواصل الاجتماعي تطور المجتمع وتطور الحياة الاجتماعية؟" وفي معرض تناوله لهذه المسألة يرى النقيب أن اللغة المستعملة في التدريس تبقي في حدود المدرسة، ولا تستعمل في الحياة اليومية، وليس لها صلة بالواقع المعاش، وإذا ما أردت التفكير والكتابة بها لابد أن تخضع عمليتي التفكير والكتابة إلى مرجعية لغوية تعود إلى أكثر من اثني عشر قرنا، والنص إذا لم يشكل سواء كان شعرا أو نثرا وجدت نفسك عرضة للحن والخطأ في فهم المعني. فلم تكن مشكلة طالبات الأستاذ حمام في فيلم (غزل البنات) القدرة على القراءة وإنما تتمثل في عدم القدرة على تشكيل الكلام لأنه غير موجود في النص" (النقيب، 2002، 18).

ثم يقترح النقيب حلا بقوله: " وليس من حل لهذه المشكل التربوي إلا في تجاوز الأطر التراثية الحديدية التي تقيد اللغة العربية إلى منطلقات رحبة من المعاني المستوردة من التجربة المتجددة، التي تعيننا على تحدي النخبة المهيمنة، سواء كانت حاكمة أو تراثية أو المكونة من النحاة التقليديين، وفي تحدي القوالب المستجدة للسيطرة والرقابة على المفردات اللغوية في لغة الميديا والقوالب المنطقية لوسائل الإعلام ولغة الآلات والصور المتخيلة التي تبثها الأقمار الصناعية. وكأن الجنس البشري يخرج من العتمة ليدخل كهف أفلاطون الذي لا تُرى فيه الأشياء الحقيقية لأنها مجرد خيالات يعكسها الضوء على جدران الكهف الأسطوري".

وكذلك ينتسب رأي النقيب إلى الاتجاهات النقدية في التعاطي مع اللغة العربية الفصحى، حيث نجد توجها مركزيا يهدف إلى إخراج اللغة العربية من صومعتها التاريخية الكلاسيكية والترحيب بها قوة حضارية جديدة لتمارس دورا حداثيا مميزا في حياة العرب المعاصرة.

4- الهجوم على العامية:

غالبا ما صورت العامية بأنها آفة لغوية تهدد اللغة وتدمر مقومات وجودها. وإلى هذا الأمر ذهب بعض المفكرين في اعتقادهم أن العامية أعشاب ضارة في حقل اللغة، وأنه يجب على المعنيين باللغة اجتثاث هذه الأعشاب وتطهير الحقل اللغوي من سمومها وأضرارها. ومن هذه الزاوية واجهت العامية موجة عدائية كبيرة تصدرها عدد من فرسان الكلام الذين قللوا من شأنها وانتقصوا من قيمتها وبخسوها حقها. وفي هذا المقام يورد الزغلول عددا من التوصيفات السلبية ضد العامية فيقول: " وقد وصفت العامية بأقذع الألفاظ من قبل الأدباء والكتاب العرب، فهي "مصاحبة للجهل والسوقية"، كما قال زكي عبد الملك، و" لغة السكارى والخدم.. . فوضوية ولا قواعد لها"، كما يقول مازن مبارك، " علامة للجهل والأمبريالية "، كما يقول علي ناصيف، " لا تستحق أن تسمى لغة، ولا تلائم أهداف الحياة الثقافية كما يقول طه حسين، " ينشرها ويحبذها الأميون" كما يقول مصطفى فهمي(الزغلول، 2000، 62).

5- ضرورة العامية:

وعلى خلاف هذا التصور ينفرد عدد آخر من الباحثين بالقول بضرورة العامية وأهميتها ضمن حدود الحقل الذي تمارس فيه، وإلى هذه الفئة من المفكرين ينتمي الباحث اللغوي يحيى الرخاوي الذي يقول: "أما اللغة (اللغات) العامية فهي لغة لا شك في ذلك، وهي لغة قادرة ومبدعة وفاعلة، ولا يوجد ما ينقص من أحقيتها في ذلك، لهذا لا ينبغي إغفالها أو تهميشها، وإلا كنا نفتعل مسيرة ضد طبيعة التطور، وضد حركية اللغة، وضد فرص الإبداع، كما أن ما يسمّى "المعرفة الحكائية" إنما يستلهم كثيرا من مصادره من لغة الناس في الحياة الآنية، أو فيما يترتب عليه من تراكم عبر التاريخ في شكل أمثال أو عادات، سواء ظهر ذلك في الفعل اليومي، أو في الإبداع المعرفي أو غيره، كل ما في الأمر أن هذه اللغات (اللهجات) العامية لا ينبغي، ولا تقدر، أن تحل محل العربية الفصحى، وإنما هي تستطيع وينبغي أن تجاورها وتتحاور معها وتثريها وتكملها" (الرخاوي، 2003).

6-متى تشكل العامية تهديدا للفصحى ؟

يرى بعض المفكرين القوميين والإسلاميين أن وجود العامية وانتشارها الواسع يهدد وجود اللغة الفصحى ويقوض أركانها، وهذا بدوره يؤدي إلى تقويض اللغة في صورتها الكلية. وغالبا ما ينظر أصحاب هذا الاتجاه القومي الإسلامي إلى "العامية" أو "العاميات" العربية على أنها خطر كبير يهدد الأمة العربية ككيان ثقافي. وينطلق أصحاب هذا الاتجاه من عصبية التمجيد المطلق للفصحى بوصفها لغة الدين والهوية القومية.

ويربط بعض الباحثين رؤيتهم للازدواجية اللغوية بمدى انتشار العامية وبطبيعة التوازن الذي يجب أن يكون بين اللغتين، فاللغة العامية " خطيرة جدا إذا تُرك لها العنان لتسود وتقود" (القرضاوي، 2004). وهذا يعني أن خطر العامية يكون في جوهر الأمر عندما تتخطى الحدود والحواجز الطبيعية لدورها ووظيفتها الحيوية وعندما تتوغل في المناطق الحيوية للفصحى كالتعليم والإعلام وفي مجال المراسيم والطقوس العلمية والأدبية ووسائل الإعلام، وفي هذه الحالة فإنها تشكل تهديدا حقيقيا، ليس للغة الفصحى فحسب، وإنما للغة العربية في صورتها الكلية.

وتكمن الخطورة الناجمة عن التوسع الكبير للعامية على حساب الفصحى في الحسابات التي تنجم عن هذه الوضعية. فعندما تأخذ العامية مكان الفصحى فإن كل لهجة كما يقول الضبيب:" سوف تتحول مع مرور الزمن إلى لغة كما حدث عند أمم أخرى. وفي هذه الحالة تصبح كل بيئة لهجية كياناً مستقلاً عن البيئات الأخرى، له لغته التي لا تفهم في البيئات الأخرى، ولا يخفى ما في ذلك من خطر على وحدة الأمة. كما أن هذه اللهجات إذا ما استقلت فسوف يكون لها أدبها ولغتها الرسمية التي تبتعد بها عن لغة التراث العربي الإسلامي المكتوب بالعربية الفصحى. وفي ذلك انقطاع عن الإرث الحضاري والتاريخي لهذه الأمة"(الجهني، 2009).

وفي هذا الاتجاه يذهب الجهني بقوله: " تبقى العامية أقل خطراً إذا بقيت في حدود لغة الشارع (إن صح التعبير)، لكنها تصبح خطراً محدقاً بمستقبل الفصحى عندما تصبح مكتوبة أو مذاعة عبر وسائل الإعلام المختلفة، وهو الأمر الذي بُلينا به حتى في صحفنا المحلية هنا في الجزيرة العربية مهد الفصحى ومنشؤها! (الجنهي، 2009).

ويرى معظم الدارسين لهذه القضية أن الخطر يكمن في حدود المسافة الفاصلة بين شعبتي العامية والفصحى. فالمسافة بين العامية والفصحى في اللغات الأجنبية غالبا ما تتصف بالاعتدال فيما يتعلق بالبنية والتراكيب والقواعد ونظام الدلالة، وفي هذه المعادلة من التوازن تكون العامية ظلا للفصحى ولا يوجد ثمة تهديد للغة المعنية. وهذه هي الحالة التي يرصدها الباحثون في اللغة الإنكليزية والفرنسية.

وفي هذا الأمر يقول خليل كلفت " إن المسافة بين الفصحى والعامية، إنْ جاز القول، في الإنجليزية أقصر بما لا يقاس منها فيما بين الفصحى والعامية في العربية. ففي الإنجليزية يسود النسق اللغوي– النحوي الواحد، وبالتالي الانسجام اللغوي، ووحدة اللغة بصرف النظر عن اختلافات اللهجات ومستويات الاستخدام، على حين يوجد في قلب اللغة العربية نسقان نحويان متعارضان تماما، مرحلتان نحويتان في تطور اللغات، وهذا هو الفارق الكيفي الذي يخلق ظاهرة الازدواج اللغوي عندنا" (كلفت، 2012). وهنا تكمن الإشكالية الكبرى لعملية الصراع بين العامية والفصحى، وفي هذا الوضعية تكون العامية خطرا على الفصحى كما هي خطر على اللغة برمتها. وذلك ناجم عن حدّة التناقض والمسافة المتباعدة بينهما.

7- التضافر بين العامية والفصحى:

أخذت مسألة الازدواجية اللغوية طابعا أيديولوجيا وشكلت مادة خصبة للصراع الأيديولوجي بين فريقين: أحدهما يدعو إلى نبذ الفصحى وتبني العامية، والآخر يدعو إلى تبني الفصحى ومحاربة العامية. وبين هذه الفريقين ظهرت دعوات إلى عقلنة العلاقة بين العامية والفصحى وتحديد ملامح وطبيعة العلاقة الوظيفية القائمة بينهما. ولكل فريق من هذه الفرق الثلاثة أسبابه ومنطلقاته الفكرية والأيديولوجية التي لا تخفى على أصحاب العلم والمعرفة.

ومما لا شك فيه أن الفريق الذي يدعو إلى محاربة الفصحى يتبنى نسقا فكريا تغريبيا معاديا للفكرة القومية ونزعاتها العروبية. أما أصحاب الفريق الذي يدعو إلى تبني الفصحى ونبذ العامية فيؤسسون لرؤيتهم من منطلق قومي أو إسلامي يعظم الفصحى وينحو إليها بوصفها قوة حضارية عربية أو إسلامية.

أما أصحاب الاعتدال فغالبا ما يشكلون فئة من هؤلاء الذين اتخذوا العقلانية والموضوعية منهجا أيديولوجيا لهم في الحياة والفكر دون أن يغلبوا الطابع الأيديولوجي على منظورهم اللغوي.

وهكذا نجد أنصارا للفصحى لا يحيدون عنها، وأنصارا للعامية لا يقبلون بغيرها، وبين هذين الاتجاهين نجد بعض المفكرين الذي يرون بضرورة الحضور الازدواجي للفصحى والعامية على أن تكون كل منهما في مجالها الطبيعي انطلاقا من التسليم في كل الأحوال بأن الازدواج طبيعي بين الفصحى والعامية وأن أحدهما لا يستقيم بغير الآخر.

هذا ويعلن كثير من المفكرين ضرورة تحقيق التوازن والانسجام اللغوي بين العامية والفصحى؛ لأن هذا التوازن الخلاق يشكل طاقة كبرى في تجاوز الانشطارات الفكرية وفي تحقيق الانسيابية اللسانية خارج دائرة التوتر والصراع الأيديولوجي بين الاتجاهات المتصلبة. وهذا يعني أنه لا بد من سيادة النسق اللغوي الواحد، وهذا عامل غائب في حالة العرب واللغة العربية على مرّ القرون بسبب الازدواج اللغوي الطويل الأمد، الذي جعل الاستثناء قاعدة، والذي يصل الآن، في العصر الحديث، إلى أقصى درجات التفاقم والاستفحال والخطورة. وضمن هذا السياق فإن العامية لا تشكل خطرا على الفصحى عندما تتم عقلنة هذه العلاقة في نسق إيجابي منظم، فالعلاقة المتوازنة بين شقي اللغة يمكن أن تكون منطلقا لإثراء اللغة الفصحى وتأصيل قدرتها الحضارية. والعامية وفقا لهذا التصور لا تضير الفصحى ولا تنتقص من قيمتها أو أهميتها ووظيفتها. ومن اللافت أن المركز العربي للتعريب في الجزائر يتبنى هذا التوجه، إذ يرى القائمون على المركز أنه "لا يوجد تنافر بين اللغة العالمة الفصيحة وبين اللغات العامية الشعبية التي تمثل عامل إثراء وغنى، إذا عرف اللغويون وعلماء النحو والبيان كيف يستثمرون هذه المادة الخام لإدخالها في النسيج الحي للغة"(المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر2010، 23). فالعاميات المتداولة في مجتمعاتنا يجب أن نهذبها ونقاربها لا كظاهرة مرضية يجب القضاء عليها، ولكن كواقع يمكن الارتقاء به، من خلال تقريب العربية وتحبيبها للناشئة وللناس بواسطة برامج مدروسة (المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر، 2010، 24). وبناء على هذه الرؤية يجب أن تقوم العلاقة بين العامية والفصحى على التوازن والتكامل والتفاعل، فالعامية ترفد الفصحى والفصحى تغتني بالعامية وتستلهم مصادرها، وكذلك فإن العامية تتوازن بنيويا وتمنح أصالتها من الفصحى. وهذه العلاقة غالبا ما تشكل علاقة توازن خلاق بين المستويين، وقد أدت تاريخيا إلى نوع من التخاصب اللغوي الذي لطالما أثمر وأغنى اللغة في شمولها. وعلى

هذا الأساس يدعو كثير من الباحثين اليوم إلى وضع كل واحدة منهما (العربية والفصحى) في إطارها الصحيح في حياتنا، وذلك عن طريق تنظيم العلاقة بهما بحيث لا تطغى أي واحدة منهما على الأخرى، أو تأخذ مكانها السيادي في حياتنا.

وفي دائرة التخاصب بين العامية والفصحى يرى بعض المفكرين أنه يمكن تعميم الفصحى بتفصيح العامة أو تفصيح العامية بتعميم الفصحى. وهذا يعني العمل على الارتقاء باللغة العامية وتقعيدها على منوال الفصحى أو إغراق العامية بقوة الفصحى إلى الحد الذي تتطابقان فيه من حيث الجمال والقوة والقدرة.

ويبين أهل العلم والفصاحة أنه إذا تعرضت العلاقة بين الفصحى والعامية للخلل، فإن ذلك قد يؤدي إلى خلل في بنية اللغة ككل، وهو ما قد يؤدي إلى طغيان العامية وانحسار الفصحى. وهذا الطغيان يؤدي إلى تدمير اللغة ذاتها وضياع مكونات هويتها ووجودها. وغالبا ما تكون هذه العلاقة نتاجا حيّا لطبيعة التخلف الثقافي والاجتماعي الذي يعانيه مجتمع ما بعينه.

وتبين الدراسات الجارية اليوم أن الفارق بين العامية والفصحى يجب ألا يكون شديد الاتساع والعمق في الحالة الطبيعية، ويجب ألا يكون ذاك التباين بين المستويين حائلا دون الفهم. وعندما يصل الفرق بين العامية والفصحى إلى حد امتناع الفهم بين أبناء الأمة الواحدة فهذا يعني حالة مرضية، وأن اللغة قد تعاني حالة انحسار وتراجع ربما يصل إلى حدّ الانقراض. وضمن هذه المقاربة يلاحظ الباحثون اللغويون أن الفارق بين اللهجات الإنكليزية وبين اللغة الإنكليزية الفصيحة، مثلاً، هو فارق ضئيل جداً لا يحول دون الفهم، على حين أن الفارق بين اللغة العربية الفصحى ولهجاتها فارق كبير جداً.

وفي هذا المقام يبين لنا علي القاسمي في بحث له حول انحسار اللغة العربية وتراجعها أن اللغات الأجنبية اعتمدت سياسات حكيمة من أجل المحافظة على لغاتها من تغوّل العامية، وتقوم " هذه السياسات على استخدام اللغة الفصيحة المشتركة في التعليم والإعلام والإدارة والتجارة وجميع مجالات الحياة، فيعتاد المواطنون على سماعها وقراءتها، ويتمكنون منها وتقترب لغتهم الدارجة من اللغة الفصيحة"(القاسمي، 2007). فاللغة العربية الفصيحة نتاج حضاري تشكل عبر فعاليات حضارية ممتدة لقرون خلت، وهي تشكل عصارة تطور تاريخي ثقافي جمالي، وإنه لمن الجنون بمكان أن يتخلى العرب عن لغتهم التي تميزت بعنفوانها ورقيها عبر التاريخ والانتكاس إلى وضعية لسانية تفتقر إلى مقومات اللغة السليمة فكريا وجماليا ومعرفيا. فاللغة العامية لن تفي بأغراض الفصحى أبدا، وتحتاج فيما لو تطورت إلى

قرون مديدة من الزمن لتصل إلى ما حققه صنوها الفصيح من حضارة لسانية. ومن هنا فإن تفصيح العامية وتطويرها في ضوء الفصحى ووفقا لجمالياتها النحوية والأدبية خير وسيلة لتطوير اللغة العربية والارتقاء بها وبقدرتها على التجاوب مع معطيات الواقع والعصر والحضارة. وقد أدرك الرخاوي هذه الحقيقة عندما قال: "إن ما ينبغي علينا أن نبذل فيه قصارى الجهد هو العمل على تحديث الجاهز والممكن والعام، لعلّنا نلحق بالركب، بدلا من الجدل حول تجهيز الفروع الوليدة (اللهجات العامية) التي قد نجد مبررا مستقبليا لتجهيزها بما يناسب فيما بعد"(الرخاوي، 2003). من المؤكد أن الجاهز والممكن والمتطور الذي يقصده الرخاوي هو اللغة العربية الفصحى، وأن العامية يجب أن تبقى في رعاية الأصل الفصيح، وعلى الفصيح أن يهتدي بواقع الحياة الذي يمثل عصب اللغة العامية أو المحكية التي يجب أن تشكل معينه في رحلة البحث عن الهوية والفكر والحضارة.

خاتمة:

لا بد للغة العربية أن تخلع رداءها المقدس كي ترى الشمس وتلامس الهواء وتختمر في بوتقة الواقع بما ينطوي عليه من خصوبة فكر وثراء حياة. ويجب على العامية أيضا أن تخرج من أوكارها ومن ظلام الأرض لتكون على موعد مع الفصحى في ضوء الشمس وحرارة الحياة. فقدر اللغة العربية أن تطير وترفرف بجناحيها في ميادين المعرفة، ثم تحلق في ضوء الشمس وعلى جناح الرياح كقوة حضارية تدفع بالثقافة العربية إلى قدر النهضة والمعرفة العلمية وأحضان المستقبل العربي الواعد.

اللغة العربية كيان حي متطور متدفق يجب أن تعارك الحياة، وأن تعترك فيها قوة نهضوية حقيقية لأهلها وأبنائها. ويجب على أهل اللغة العربية إخراج الفصحى من صومعة التاريخ ومن متاحف الزمن المغلقة. وعلى أبناء الأمة أن ينفضوا عنها غبار الزمن الماضي، ويحرروها من صدأ التقديس والحرمان. فاللغة لا تكون قوية في غير المغامرة اللسانية التي تدفع بها إلى التدفق الإبداعي الخلاق. وكنا يقول المثل: البحر الهادئ لا يصنع بحارا ماهرا. وتلك هي حال العربية تحتاج إلى المغامرة في عصر لا يعرف إلا ومضات التغير والتجديد والتبدل.

وقد حان الوقت الذي ييجب فيه على الباحثين العرب أن يغمدوا سيوفهم ويضعوا أسنتهم الأيديولوجية، وأن يفكروا بعيدا عن صولة الأيديولوجيا وذهنية الفحولة والصراع. وعليهم أيضا أن يحطموا

أصنامهم الأيديولوجية ويكسروا ذهنية الانكسار تحت وقع الأيديولوجيات العقيمة. فاللغة العربية – حالها كحال الثقافة – تحتاج إلى رؤية عقلانية موضوعية متحررة من أثقال الماضي بنماذجه المطلقة المغلقة. فاللغة حياة وعراك وصراع، وسنن الحياة تستوجب التغير والتجدد، وما لا يتجدد يذوي ويموت ويتلاشى حتى وإن كانت اللغة العربية لغة الدين والإيمان والهوية.

حان الزمن لكي نأخذ بمعطيات الواقع ونحترم متغيراته ونأخذ بأسباب النظرة العلمية إلى التاريخ والثقافة والحضارة. فاللغة العربية تحتاج إلى حركة تجديد، والعامية إلى تطوير. والجميع يدرك اليوم أن تقليص المسافة بين الفصحى والعامية يشكل ضرورة حضارية لا مندوحة عنها أبدا. فالحل ليس في الهجوم والتعنت والمغالبة والصراع، بل في رؤية علمية عقلانية عن طبيعة اللغة ومشكلاتها. وهنا يجب علينا أن نأخذ بتاريخ تطور اللغات والتجارب العالمية في انتشارها والبحث في عناصر قوتها وعظمتها.

وإنني لعلى يقين أن كل أشكال الهجوم على الفصحى تارة، والعامية تارة أخرى، لم تكن ولن تكون سوى تداعيات وقت ضائع على دروب الإصلاح اللساني، وحان الوقت لتعويض ما فات من زمن التغرب والتهتك والصراع الذي يدل على عقم حضاري يتميز بعمقه وشموله. وعلينا قبل أن نهاجم دعاة العامية أن ننظر في أسبابهم الموضوعية، وأن نتفهمها كذلك، وعلينا ألا نغض الطرف عن الظروف والعوامل التي جعلت من دعاة الفصحى يقعون في دائرة التمجيد والتقديس لنماذجها التاريخية القديمة. فاللغة صناعة إبداعية، والشعوب هي التي تصنع اللسان، ومن ينظر في أصول التكوينات اللسانية للغةالإنكليزية سيجد أنها أكثر التكوينات هجانة، ومع ذلك فاللغة الإنكليزية تلتهم العالم بقوتها وطاقتها وانتشارها واتساعها،. وهذا ليس لمزايا في اللغة الإنكليزية ذاتها بل لأن أهلها أصابوا التقدم العلمي ونالوا كل ضروب القوة الاقتصادية والعسكرية.

إن الضعف اللغوي الذي تشهده العربية اليوم ناجم عن ضعف في قوة العرب وفي إمكاناتهم التاريخية. ومن ثم فإن انحسار العربية وتراجعها مؤشر على تراجع الفعالية الحضارية للعرب. ولن تكون اللغة العربية قوية أبدا ما لم تجد القوة أسبابها في حياتهم الاقتصادية والاجتماعية. ولو كان العرب أقوياء لبلغت العربية أبراج السماء في مستوى حضارتها وتقدمها.

نعم نريد القول مع القائلين إن العربية تحتاج اليوم إلى إصلاح شامل يخرجها من دوائر جمودها وانغلاقها، تحتاج إلى إصلاح يحطم جدران الممانعة ضد التجديد والابتكار. وهكذا فعل الإنكليز والأمريكان الذي طوروا لغتهم وطوعوها لمتطلبات العصر والحداثة فكان من شأنها ما كان من قوة وانطلاق وعزيمة.

نحتاج اليوم إلى إصلاح تربوي تتقاطع فيه السياسة مع الاقتصاد، والثقافة مع المعرفة العلمية والحاضر مع الماضي من أجل إخراج اللغة العربية من عوامل انتكاستها وضعفها وخمولها. ويجب علينا في هذا الإصلاح أن نستفيد من كل التجارب العالمية القديمة والجديدة ومنها التجربة اليهودية في إحياء العبرية التي أصبحت لغة علم ومعرفة بين عشية وضحاها، وعلينا ايضا أن نضخ الدماء الجديدة في الجسد العملاق للغة العربية لتكون شاهدا على العصر وفاعلا فيه ومنتجا للمعرفة العلمية في إطار نهضة فكرية وثقافية شاملة.

ليس العيب في لغتنا بل العيب والضعف في أهلها الذين هجروا البحث العلمي وغادروا محراب الحضارة الفكرية منذ أمد بعيد. والعيب كامن في صراعاتنا التي تبدو مخجلة وسخيفة، وفي أنساقنا الآيديولوجية القاتلة كما هو العيب في تمترسنا وراء حدود الماضي والنماذج القديمة التي لا يمكنها أن توفر أمنا أو استقرارا، أو تقدم لنا حصانة في زمن الومضات والتموجات الحضارية التي تهتك النماذج وتدك الحصون.

مراجع الدراسة

1. إبراهيم، أحمد عاشور (2007). لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ..الفصحى والعامية، منتديات شبكة الساهر : http://www.al-saher.net/vb/al-saher59910.html.
2. بركات، مصطفى علي السيد (2003). اتجاهات أعضاء هيئة التدريس بجامعة المنوفية نحو تعريب تعليم العلوم والتقنية كمدخل لمواجهة التحديات المعاصرة: العولمة وتهديد الهوية القومية – دراسة ميدانية، مقدمة لمؤتمر العلمي الخامس عشر(مناهج التعليم والإعداد للحياة المعاصرة) – مصر، مج 2 (2003) (صص 578 – 610).
3. بركات، هاني محمد يونس (2003). الاستشراق والتربية، عمان: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
4. بلاو، جاشوا (2000). نشأة الازدواجية اللغوية في العربية: دراسة في أصول اللهجات العربية الحديثة، في دراسات في تأريخ اللغة العربية، ترجمة حمزة بن قبلان المزيني، الرياض: دار الفيصل، (صص 185- 260).
5. بن البراء، يحيى (2004). اللغة والهوية وآفاق التنمية، سلطنة عمان: مجلة التسامح، العدد 5.
6. بن تنباك، مرزوق بن صنيتان(2005). اللغة العربية في القرن الحادي والعشرين، في المؤسسات التعليمية في المملكة العربية السعودية، الواقع والتحديات واستشراف المستقبل، محاضرة ألقيت في جامعة الملك سعود، قسم اللغة العربية بتاريخ 17 مايو/أيار 2005 .
7. الجهني، محمد فالح (2009). اللغة العربية: عقبات محلية في طريق العالمية، مجلة المعرفة، العدد 65، سبتمبر / أيلول: http://www.almarefh.org.
8. حسن، عزت (2010). هل الفصحى ضد التقدم؟.. العامية تغزو ساحات كانت مقصورة على الفصحى، شبكة منتديات الوطن الموريتانية : http://www.alwatanrim.net/vb/showthread.php?t=7424.
9. حسين، طه (1973). مستقبل الثقافة في مصر، بيروت دار الكتاب اللبناني، المجلد التاسع، الأعمال الكاملة. ص 247 .
10. حسين، محمد محمد (1981). فقه اللغة بين الأصالة والتغريب، مجلة كلية اللغة العربية بالرياض، عدد 11.

11. خير الله، أسامة (2005). في الهجمة على لغتنا العربية الجميلة، مجلة حوار العرب، س1، ع 5، ابريل نيسان، 2005، (صص 53- 54).
12. الرخاوي، يحيى (2003). اللغة العربية وتشكيل الوعي القومي، شبكة العلوم النفسية العربية : http://www.arabpsynet.com/Archives/VP/VP.Rakkaoui.ArabLangage.htm
13. الزغلول، محمد راجي (2000) ازدواجية اللغة: طبيعتها ومشكلاتها في سياق التعليم، ضمن مجموعة مؤلفين: (2000) اللغة والتعليم- الكتاب السنوي الثاني - بيروت: الهيئة اللبنانية للعلوم التربوية.
14. الزغلول، محمد راجحي (1980). ازدواجية اللغة، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، العددان 9/10، آب/ كانون الأول .
15. عبد الهادي، عبد الرحمن (1993). الذهنية العربية: منظور لغوي، دراسات عربية، عدد 3/4، كانون الثاني/شباط، صص(11- 30).
16. عبيد ، عبد اللطيف وسويسي، رضا (1995). طرائق وأساليب تدريس اللغة العربية في مرحلة التعليم الثانوي في الوطن العربي، تونس: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم .
17. القاسمي، علي (2007). انقراض اللغة العربية خلال القَرن الحالي، الشركاء، مارس / آذار: http://www.voltairenet.org/article145997.html
18. القرضاوي، يوسف (2004) اللغة العربية دين وهوية ولغة (برنامج الشريعة والحياة - قناة الجزيرة) مقدم الحلقة: ماهر عبد الله تاريخ الحلقة: 04/ 04/ 2004 .
19. كلفت، خليل (2012). الازدواج في اللغة العربية بين الفصحى والعامية، الحوار المتمدن، العدد: 3712، 29/ http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=3055044 :/
20. النقيب، خلدون حسن (2002). آراء في فقه التخلف: العرب والغرب في عصر العولمة، بيروت: دار الساقي.